جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان - قسم التاريخ

أستاذ المادة: د/ سمير مزرعي السنة الثانية ليسانس

دولة الأدارسة في المغرب الأقصى (172-375هـ/788-985م)

تمهيد: تنسب الدولة الإدريسية إلى مؤسسها إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ومن الأخطاء الشائعة القول بأن الأدارسة دولة شيعية، لأن مؤسسيها وأمرائها كانوا من آل البيت، فالحقيقة أن الأدارسة رغم علويتهم لم يكونوا شيعيين، فقد كانوا سنيين ولم يعرفوا في بلادهم غير الفقه السني المالكي، والوصف الحقيقي لهذه الدولة أنها كانت علوية هاشمية، فهي أول تجربة نجح فيها آل البيت في إقامة دولة لأنفسهم بعيدا عن مركز الخلافة في المشرق.

1- بداية تأسيس الدولة:

في عهد الخليفة المهدي العباسي أوقع فيها العباسيون جماعة من العلوين من أحفاد الحسن بن علي، الذين كانوا يدعون لأنفسهم ويطمحون لتأسيس دولة مستقلة بهم بعديا عن مركز الخلافة العباسية في مأساة عرفت في التاريخ الإسلامي بـ (موقعة فخ) سنة 169هـ/786م، وكان من أحد القلائل الذين نجوا من تلك المجزرة أحفاد علي كرم الله وجهه: يحيى بن عبد الله الذي فر إلى إقليم "الديلم" جنوب بحر قزوين، وسليمان الذي أنشا لنفسه كيانا بمعونة أخيه إدريس كيانا في تلمسان عرفت بالدولة الحسينية أو السليمانية، بينما فر إدريس بجلده واتجه نحو مصر في بداية الأمر ثم منها إلى المغرب الأقصى.

تذكر الروايات التاريخية أنه لما كان إدريس مستقرا في مصر لاقاه صاحب البريد "صالح بن أبي حفر المنصور" في مخبئه ثم أرسله مع قافلة البريد خشة عليه من عيون بني العباس لأنه قافلة البريد كانت معفية من التفتيش، وكان قد أرسل معه "المولى راشد"، ولا نعلم على وجه التدقيق أصل راشد غير أن معظم المصادر تتفق على أنه من أصل بربري الأصل فهو بذلك يعرف اللسان البربري الذي يتكلم به الناس في نواحي المغرب الأقصى، ويعتقد بعض المؤرخين أن إدريس وراشد خرجا في زي التجار فكان راشد هو السيد وإدريس خادمه يأمره أمام الناس فيطيع أمره وذلك ليخفي شخصيته.

إمتدت رحلة إدريس ومولاه راشد من مصر إلى القيروان ثم إلى تلمسان حتى وصلا إلى طنجة التي كانت عاصمة المغرب في ذلك الوقت، غير أن إدراكهما لمركز المغرب الحقيقي جعلهما يغيران الوجهة نحو (مدينة وليلي) حيث استجار بأميرها اسحاق بن محمود عبد الحميد زعيم قبيلة "أوربة"، فأجاره وأعجب الأمير بعلمه وتقواه فتنازل له عن الامارة ثم جمع له قبيلته وبايعته قبائل غمارة وزوارو ومكناسة وسدراتة ونفزة سنة172هـ/ 788 م.

لقد تنبه هارون الرشيد لما يحاك ضد دولة العباسيين من خلال تأسيس إدريس لدولته العلوية في المغرب الأقصى، لهذا تدارس أمر إدريس مع جفر البرمكي وقال قولته المشهورة:" إن الرجل -أي إدريس- قد فتح تلمسان وهي باب إفريقية، ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار، وإني هممت أن أبعث إليه جيشا ثم فكرت في بعد الشقة وعظم المشقة، ولا طاقة لجيوش العراق على الوصول إلى السوس من أرض المغرب فرجعت عن ذلك" وكان رأي الوزير أن يبعث رجل ذو خبرة ومهارة ليقتله، وبالفعل هذا ما لجأ إليه الرشيد، حيث أنه كلف شخصا يسمى سليمان بن جرير ويكنى بـ "الشماخ" الذي قام باغتياله عن طريق السم الذي دسه له في الطيب (أي العطر) كما تقول الروايات التاريخية.

بعد وفاة إدريس الأكبر سنة 177هـ/793م لم يترك وريثا شرعيا سوى إحدى جواريه تسمى (كنزة) حاملا في شهرها السابع، فاتفق رؤساء وشيوخ القبائل على أن ينتظروا حتى تلد (كنزة)، فإذاولدت غلاما كان أميرهم ويسمونه على إسم أبيه ويبايعونه وهو في المهد، وإذا كانت ولدت جارية نظروا في أمورهم في إمارة أنفسهم، ولما ولد إدريس قاموا بمبايعته وهو رضيع، ثم أعيدت له البيعة وهو في

سن العاشرة من عمره سنة 186هـ/793م، وقد كان في هذه المرحلة تحت وصاية (المولى راشد) ثم تحت وصاية أبو خالد يزيد بن إلياس العبدري البربري الذي عينه (راشد) بعد أن بلغه الكبر والشيخوخة.

بلغت الدولة الإدريسية في عهد إدريس الثاني أقصى اتساع لها، إذ امتدت من وادي الشلف بالمغرب الأوسط شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ومن ساحل البحر المتوسط شمالا إلى الصحراء جنوبا، فقد سادها الامن والاستقرار وانصرف الإمام إلى تنظيم شؤونها، فنشر الإسلام في أصقاعها النائية التي لم يصلها والده (إدريس الأكبر)، وطبق أحكام الشريعة الإسلامية وجبى الأموال المستحقة، غير أنه بعد وفاته نجد أن ابنه وخليفته محمد بن إدريس يتصرف تصرفا غريبا وغير مسؤول، فيقوم بناء على نصيحة جدته كنزة بتقسيم الدولة بين إخوته الكثر، بدل أن يعينهم عمالا أو ممثلين له في مختلف الولايات والكور، لكنه بدل ذلك أعطاؤهم استقلالية في نواحي الدولة ومنحهم إقطاعات انفرد كل واحد منهم بناحيته، فكان هذا سببا حتميا في ضعف الدولة وهي لم يكتمل عرها بعد التي لم تصمد أمام التحديات الخارجية للدولة الخارجية المستقلة الناشئة التي تقوم على التوسع على حساب الدول الأخرى.

2- علاقاتها مع الدولة المجاورة:

اتسمت علاقة الأدارسة بالدول الأخرى بالعداوة والصراعات، فهي لم تكن بمأمن من الدولة العباسية ذات الأطراف المترامية، ويرجع ذلك إلى رغبة البيت العباسي إخضاع كافة أرجاء العالم الإسلامي وتحقيق وحدة دار الإسلام باعتبارهم الخلفاء الشرعيين، فبعد انفصال دولة الأدارسة عن العباسين أصبحوا يشكلون لها خطرا حقيقا، فبعد تحقيق استقلاليته ووحودتهم راودتهم فكرة الإنتقام لما حل بالعلويين من مجازر في المشرق على يد أبناء عمومتهم، أما عن علاقتها بدولة الأغالبة (184-296هـ/800-909م) فلم تختلف عن سابقتها، فقد اتسمت بطابع العداء الذي ورثه الأغالبة عن بني العباس، إذ كان الأغالبة هم المنفذين للسياسة العباسية في المغرب الإسلامي، يضاف إلى ذلك أن ظروف تأسيس دولة الأغالبة جعلت سياستها الخارجية تتوافق مع السياسة العباسية.

3- مذهب الدولة الإدريسية:

دخل الإسلام إلى المغرب في القرن الأول مبنيا على تعاليم الكتاب والسنة، حتى إذا كان مطلع القرن الثاني وبدأ الخوارج يتسربون إلى المغرب في صفوف الجيش الإسلامي، وجدوا المغرب ميدانا خصبا لنشر مذاهبهم، خاصة والولاة الأمويون لم يعدوا يطبقون تعاليم الكتاب والسنة تطبيقا حقيقيا، ولما جاء الأدارسة، وجدوا الخوارج في سجلماسة وغيرها، كما وجدوا البرغواطيين في تامسنا، وقد دخل المذهب الحنفي إلى المغرب عندما جاءت جيوش العباسين إلى شمالي إفريقية، ولكن هذا المذهب لم يكتب له الانتشار، لأن الدولة لم تتبنه.

والظاهر أن مؤسسي الدولة الإدريسية لم يأخذوا بمذهب مالك، خاصة وأن المذهب المالكي لم يصبح مذهبا حقيقيا إلا بعد أن انتشر تلاميذه في بقاع البلاد الإسلامية، وصاروا يبسطون في كتاباته وأقواله بالشرح والتدقيق، ولا يمكن أن نقول على أي حال بأن مذهب مالك انتشر في المغرب بفضل الأدارسة، فأصحاب الفضل بحق، هم المرابطون الذين عملوا على إقرار المذهب في المغرب كله، ومهما يكن من شيء، فإن عهد الأدارسة قد عرف مذاهب متعددة: الخارجية، الشيعية، المالكية، حسب الظروف المكانية والزمانية التي اكتنفت حياة هذه الدولة.

وعلى كل حال؛ فإن الأدارسة كانوا أميل إلى المذهب الشيعي، حتى أنهم كانوا ينتهزون أول فرصة تسنح لهم ليلغوا الخطبة باسم الأمويين، ويقروها باسم العبيديين، ولا أظن أن هذا شيء يدعو إلى الاستغراب، فكل من الأدارسة والفاطميين يشتركون في شرف النسب؛ إذا سلمنا بأن الفاطميين من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم إن الفاطميين يقرون عصمة الإمام كشيء واجب، وهذا مما يفيد الأدارسة معنويا في أوساط البربر، ولو أنهم لم يتعصبوا للشيعة تعصب الفاطميين أنفسهم، هذا إلى جانب اعتبارات سياسية جعلت الأدارسة يميلون إليهم.

ومن المؤكد أن مذهب الإمام مالك قد دخل أيضا في عهد الأدارسة بفضل الأندلسيين والمغاربة، أما في الأندلس فقد أدخله زياد بن عبد الرحمن الملقب بشبطون، ثم تلميذه يحيى بن يحيى الليثي الذي درس بدوره على يد مالك وهو بربري من طنجة، قوي نفوذه

لدى بني أمية في الأندلس أواخر القرن الثاني، حيث أصبح تعيين القضاة بمشورته، ومع أن كتاب الموطأ قد روي بخمس عشرة رواية، فإنه لم يبق منها إلا رواية محمد بن الحسن الشيباني، ورواية يحيى الليثي وقد توفي سنة 234هـ/848م، وإذا كان الأمويون قد عملوا بفضل نفوذهم السياسي على إقرار مذهب مالك في الأندلس، فإن المغرب قد ساهم في إقرار هذا المذهب بمجهودات فردية، فقد قيل إن أول مغربي عمل على نشر مذهب مالك بالمغرب أبو ميمونة دراس بن إسماعيل الجراوي في أوائل القرن الرابع، وينسب إليه مسجد بفاس، وقد توفي سنة 357هـ، وعلى كل فإن فقهاء المغرب الأوليين درسوا إما مباشرة على يد الإمام مالك، أو تلقوا علمهم عن فقهاء الأندلس والقيروان.

خلاصة: في سنة 305هـ/917م عين عبيد الله المهدي الفاطمي مصالة بن حبوس الكتامي قائدا على أحد الجيوش وأرسله إلى المغرب الأقصى قصد إزالة حكم الأدارسة منها، ولما انتصر مصالة في حروبه ضدهم عين على المغرب الأقصى شيخا من شيوخ بربر مكناسة وهو موسى بن أبي العافية وجعله عاملا عليها، غير أن هذا الأخير خلف الأدارسة في حكم المغرب الأقصى سنة 313هـ/925م بعدما أن تم له القضاء عليهم ونفى بعضهم إلى قلعة حجر النسر.